الشاهد العيان على احوال البلقان

رحلة الاب لويس رنزفال اليسوعي الى ادرنة

كان نظر العالم باجمعه متّجهاً نحو ادرنة منذ سار اليها البلغار فحاصروها واخذوا بخناقها . وكان همّنا اعظم من سوانا اذ قدّر الله بوجود اعزّ اهلنا واقاربنا في تلك المدينة فانقطعت عنّا اخبارهم زمناً طويلاً ونحن نتقلّب على جمرات النار لما يتهدّدهم هناك من الاخطار ليلاً مع نهار . فما وردت الانباء بفتح ادرنة في اواخر آذار حتى تلطّف رؤساؤنا وفوّضوا الينا افتقاد المنكوبين لعلّنا نخفّف عنهم اعباء تلك المحنة . نعم انّ اخبار البرق كانت صرّحت بانّ المستعمرة الاوربيّة في ادرنة سالمة كلّها فطمّنتنا نوعاً لكنّنا كنّا نودّ ان نتحقّق الامر عياناً . وستري انّ انشغال بالنا لم يكن مجرّد وهم وانّ اولئك الاحباب ما كانوا لينجوا من اهوال الحرب لولا نعمة خاصّة من المولى الذي نشكره على صفحات هذه المجلّة شكراً مستفيضاً كما هو اهلهُ

اقلعنا من بيروت في ٩ نيسان راكبين الباخرة الخديويّة وفي حسابنا انّنا نعود اليها بعد اربعة اسابيع اذ كنّا نظنّ انّ الوصول الى ادرنة سهل وانّ الطريق اليها مطروقة من بحر سفيد او الارخبيل فننزل الى ده ده اغاج او الى بورغاس فنقلّنا منها السكّة الحديديّة الى ادرنة . لكن عقبات كثيرة اعترضتنا فحالت دون مرامنا

واوّل ما عاقنا في تحقيق امنيّتنا اننا لم نجد في ازمير مركباً يُبحر الى ده ده اغاج فقُضي علينا بان نسير الى الاستانة . ولعلّ الامر كان لطفاً من الله لأنّ البلغار ما كانوا يرخّصون لاحد بالنزول الى ده ده اغاج الّا بجواز خاصّ من وزير الحربيّة فكان اضحى سفرنا سدًى

فابحرنا الى الاستانة وكان البحر في هياج عظيم منذ خروجنا من رودس فلم يهدأ بعد استئناف مسيرنا من ازمير حتى بلغنا جزيرة متيلين (مدلّي) فلمّا قربنا من تنيدوس سكنت الريح وانقشعت الغيوم فصفا اديم الجوّ وخمد البحر فقربنا من مضيق الدردنيل وابصارنا حيثما تقع تقرّ لمشاهد الطبيعة الفتّانة فكنّا نشخص الى جزيرة لمنوس غرباً والى امبروس وشبه جزيرة الدردنيل البديعة شمالاً وشمالاً شرقاً

والى سواحل آسيـــة وآثار طروادة شرقاً واخيراً الى تنيدوس والجزائر الصغرى القريبة منها جنوباً . وكانت شمس الربيع تكسو هـذه المناظر حلة من النور فترسل اليها اشعتها الذهبيَّة في ضحى النهار فلا يشبع النظر من رؤية محاسنها فكان الركاب صوتاً واحداً : لله ما اجمل هذه المشاهد

ومما زاد هذا النظر بهجةً ما لقيناهُ هناك من مراكب اليونان الحربيَّة فكان اسطولهم متفرقاً تلوح سفنهُ في أهبتهـا الحربيَّة من دوارع ونـاقات وكانت سُفن أخرى نقَّالة تسير ذهاباً واياباً فتُقدم حيناً وتتوارى حيناً آخر . فقال بعض رفقتنا : لو امكننا ان نحضر واقعةً حربيَّة لزاد بهـا تأثرنا ورأينا ما يتمنَّى كثيرون ان يروهُ

وما قالوا ذلك حتى عرجت بنا الباخرة الى قرب مدخل الدردنيل واذا بنـاقتين تركيَّتين تسيران بسُرعة تحت حماية بطاريَّات الحصون . وكنَّا نظن انهما لا تجسران ان تخرجا من المضيق لمحاربة اسطول اليونان . وما اشدَّ ما كان انذهالنا اذ رأيناهما متَّجهتين بجرأة الى الامام فرَّا قريباً من باخرتنا ثمَّ خرجتا من المأزق ورمتا بقنابلها النـاقات اليونانيَّة . فعاملهـا اليونان بالمثل والتحم القتال بعد قليل بين عموم السفن . لكنَّ اليونان خوفاً من بطاريَّات المضائق اخذوا حذرهم وتباعدوا فدوارعهم ارست حيث لم تُصب بدافع الاتراك البرِّيَّة اما السُّفن الصغيرة فتوارت بين تنيدوس وجزيرة هناك شماليَّة حيث جمع اليونان على ما يقال ذخائرهم الحربيَّة . ومن المحتمل انَّ النـاقتين التركيَّتين قصدتا ذاك المخزن (الجبخانة) لتجرادهُ فـار اليونان للدفاع عنهُ . وما تحقَّقناهُ ان الاتراك بعد ثلث ساعة دحروا اليونان تماماً . وكنَّا نرى العدد الجمّ من جنود الدولة واقفين عند الحصون يرصدون حركات المتقاتلين وهم مستعدُّون لاطلاق مدافعهم على الاعداء

وما عدلت الباخرة بنا قليلاً عن الارخبيل حتى رأينا الطرَّاد « مجيديَّة » الشبيه بمجيديَّة يخر البحر لاحقاً بالنـاقتين . ثمَّ ارسينا بازاء مدينة الدردنيل فشاع هناك الخبر انَّ البارجة اليونانيَّة أفروف (Avéroff) ارتطمت في نواحي امبروس وانَّ الاسطول العثماني خارج ليحاول القبض عليها او يحرقها . لكنَّ الخبر لم يتأكَّد

وفي اثناء مرورنا في مضيق الدردنيل كنَّا نسرح الابصار في التحصينات القويَّة التي عزَّزت بها الدولة ضفَّتي المضيق لا سيما الضفَّة الاوربيَّة بعد مفـاجأة البوارج

الطليانيَّة لذاك المعبر واقامت هناك مرايا كهربائيَّة على مسافات قريبة لكشف سفن العدوّ وكذلك نصبت على جانبي المضيق عدَّة مدافع حجبتهـا في قُتَر هذا ما عدا المدافع ذات العيار الكبير المجهَّزة في الحصون

ثم خرجنا من مضيق الدردنيل فلنا قليلًا واذا بالاسطول التركيّ في تمام اهبته الحربيَّة ومراجله تغلي متحفِّزًا للسير عند اوَّل اشارة . فرأينـا بوارجهُ وقواطعهُ كطرغود ونيس وبرباروس ومسعوديَّة مع المدفعيَّات والنَّسافات والماكسة للنَّسافات . ثمَّ اقتربنا من غاليبولي فعاينَّا من عن ظهر السفينة آثار الزلزال الاخير الذي دُهمت بهِ في شهر آب المنصرم حيث خربت الآذن وتقوَّضت المساكن وتداعت جدران الابنية وكنَّا نشاهد حركات الجنود المستعدَّة لمحاربة البلغار واليونان . امَّا القرى المحيطة بغاليبولي في شمالها الشرقي من جهة بولير وشاركوي فكانت تلوح لنا عن بُعد بيضاء ناصعة في وسط الخضرة فنتعجب من حسنها . واذ نظرنا اليها بالنظَّارة المجهرة بانت لنا حقيقتها فاذا هي مضارب للجند احتلُّوها في مدَّة الحرب . وقد اكد لنا ضبَّاط المركب انَّ هناك بين ٤٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ جنديّ مستعدّين لمناجزة العدوّ القتال . وذكر اولئك الضبَّاط ما جرى لباخرتنا « توفيقية » قبل شهر ونصف اذ تكاثف عليها الضباب فارتطمت . واضطرَّ الربيس الى ان يفرغ قسمًا من شحنها فيزلهُ الى البرّ وكان البلغار يرقبون حركات السفينة فظنُّوا انها تُفرغ موادّ حربيَّة ممنوعة واخذوا يطلقون عليها قذائفهم وقد اروتنا آثار رصاصهم في ظهر المركب . فللحال امر الربيس بنشر راية بيضاء . وكفَّ البلغار عن الضرب ثمَّ قدم منهم مفتِّشان ليتبيَّنا الامر فاوفد الربيس معهما نائبهُ الى العدة البلغاريَّة فازال كلّ شبهة بشرح الحال كما روتهُ الجرائد وقد حدث مثل ذلك لمركب الفرنساوي سوزت فرايسينه (Suzette-Fraissinet) . ولمركب آخر ممَّا يشهد على ان البلغار لا يُراعون احدًا في سبيل صوالحهم ولا يصبرون على الغضّ من حقوقهم

وصلنا الى الاستانة في ١٢ نيسان وما لبثتُ ان اجتمعتُ برجال السفارة الفرنسويَّة فطلبتُ جوازًا يمكنني من السفر الى ادرنه . فتلطَّف المسيو بوب كاتب اسرار السفارة فارسل في اليوم عينهِ نبأً برقيًّا الى معتمد الدولة الفرنسويَّة في صوفيا لينال لي الرخصة اللازمة من الوزارة البلغاريَّة لادخل ادرنة . فانتظرتُ الجواب اسبوعًا بل اسبوعين

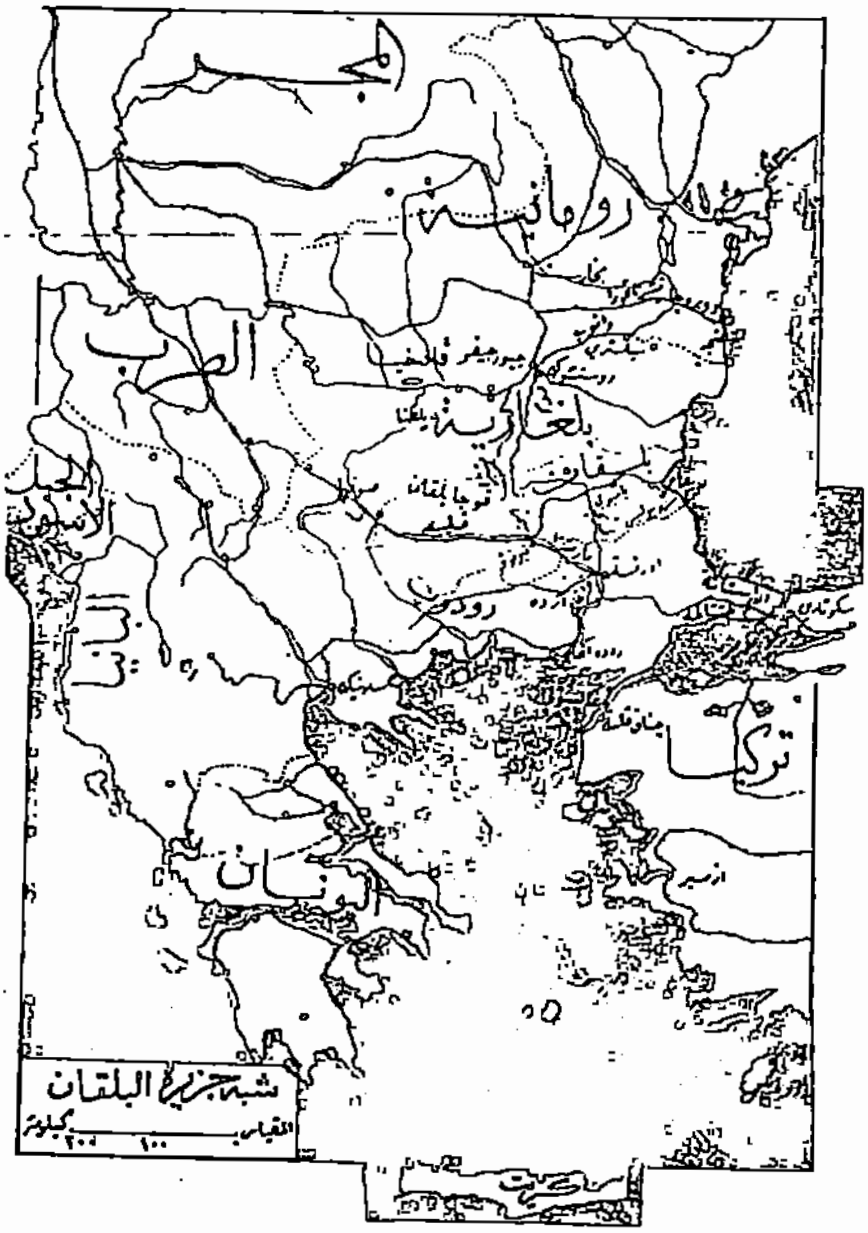
رومانيا
الطب
الجبل الأسود
تركيا
اليونان
شبه جزيرة البلقان
المقياس
١٠٠
٢٠٠ كيلومتر

حتى خاب الامل من نوال الجواز المطلوب . فاخذت كلّ المعلومات عن سفر البواخر وواجهت المسيو پوپوف الملازم الحربي البلغاري في سفارة روسيَّة فتحقَّقت انهُ ليس طريق اخرى الى ادرنة غير طريق قارنه كل اسبوعين او طريق رومانية من قسطنجه وبخارست وجورجيفو ثمَّ قطع نهر الدانوب الى روستشوك . فاخترتُ هذه الاخيرة مع مشاقها توفيرًا للوقت

واتهزتُ فرصة اقامتي في الاستانة لازور الاقارب والمعارف — وقد اذهلني ما لحظتُ من هدوّ الحاضرة وسكينة اهلها والجيوش قائمة على ساق الحرب عند ابوابها اذ كانت لا تزال عساكر الدولة والحلفاء تحت السلاح على مسافة ٣٥ او ٤٠ كيلومترًا فقط من الاستانة وعددهم لا يقلّ عن ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل . وكنَّا نرى الاسطول الدولي مزيّناً لترعة البسفور ومن جملة سفنهِ الحربيَّة الطرَّاد « هنري كاتر » الذي اقام مدَّة في مرسى بيروت

ومما شاهدناهُ بملّ الاسف قصر چيراغان الذي التهمتهُ النيران بعد ان اتخذهُ المبعوثان كمتدى جلساتهم السياسيَّة . لكنَّنا وجدنا في منتزه يلدزكشك ما يسرّ كلّ هومنا واشرح صدرنا بما جمعتهُ الطبيعة هناك من المحاسن الفتَّانة وكان الربيع زاد هذا المكان بهاء وجمالًا فبسط فيهِ خمائلهُ الخضراء ومدّ عليهِ اشجارهُ الفنواء ورقش زهورهُ الزهيَّة العطرة مع ما يكشف النظر من مباني العاصمة وقصورها وجوامعها ومناورها في جانبي آسية واوربَّة معاً . فكنت تائهاً ثملًا بمشاهدة تلك البدائع كأني انتقلتُ الى عالم آخر أنساني الوجدان

وقد زرت فيما زرتهُ جامع ايوب من اجمل المآثر البنائيَّة الاسلاميَّة وجامع القهريَّة الذي كان قديماً كنيسة بوزنطيَّة مزداناً بتصاوير عجيبة من الفسيفساء أزالوا عنها الملاط الذي كان يحجبها ويشوّهها لمَّا زار جلالة ملك الالمانية السلطان عبد الحميد

*

وركبنا باخرة رومانيَّة يوم السبت ٢٦ نيسان في عصر النهار مبحرين الى قسطنجه فمدنا الى تظر خفاف البوسفور الذي قطعناهُ طولًا من الجنوب الى الشمال فكانت ابحار الركّاب لا تشبع من معاينة تلك المناظر الآخذة بمجامع الفؤاد الساحرة لعيون الناظرين . وما كنَّا لنملّ من تلك المشاهد لولا انَّ الريح التي رافقتنا عند

خرجنا من الاستانة اخذت تتسع واضحت عاصفة لما بلغنا مضيق البوسفور الشمالي حيث عاينا الاستحكامات والتحصينات التي عُزّز بها ذلك المعبر كما فعلوا في مضيق الدردنيل

وهناك يبتدئ البحر الاسود الشهير بانوائه المشؤومة فلاحت لنا شمالاً عن بعد بين الغيوم المتكاثفة قرية دركوس التي يشرب اهل الاستانة من مياهها المجلوبة بالقني . وكان البلغار قد حوّلوا مجراها عن المدينة قبل الهدنة. وكذلك لم نميّز تميزاً واضحاً مدينة ميديا التي تعيّنت كتخم بلاد البلغار الشمالي الفاصل بينها وبين تركيّة

في صباح اليوم التالي القت باخرتنا مرساها في قسطنجه وهي مدينة مستجدّة البنيان زاهية العمران على طرز المدن الحديثة وموقعها في مقام مدينة قديمة للرومان اسمها قنسطنطينيانة . وهي كلها فوق صخور تعلو قليلاً عن سطح البحر وتشبه بأبنيتها وهندسة شوارعها واسباب رفاهيتها اجمل المدن الاوربيّة. ورأينا هناك كنيساً اليونود بحكم الهندام فخمة بناؤه كنيسةً وكذلك مررنا بجامع للمسلمين مشيّد على الطراز الرومانيّ البوزنطيّ على مثال كنيسة فُرْقيار في ليون . ومركز المدينة على مسافة كيلومترين من البحر تتواصل بينها وبينهُ ابنيةُ الخاصّة. وعلى جوار البحر حمّامات يتقاطر اليها المستحمّون في فصل الصيف. وكذلك يصطافون في كلّ سواحل البحر الاسود الغربيّة ومدنها كفارنه وبورغاس فانها مواقع بهجة طيّبة الهواء كثيرة الخيرات ومرافق الحياة تلطّف حرارةَ صيفها الريحُ الشماليّة التي تهبّ في معظم نهارها

كان موعد سفر القطار السيّار (الاكسبرس) الساعة السادسة فركبناهُ متّجهين الى بخارست فقطعنا مستنقعات دوبروجا المتكوّنة من مياه نهر الدانوب وامتداد المياه البحريّة . وسيلستري في جنوبيّ تلك المستنقعات التي كان يحوم فوقها او يسبح في مياهها الوف من ضروب الطيور البرّيّة كالبطّ والوزّ والكركيّ والغرّاص والبلشان. وبعد ساعة سرنا على مقربة من مدينة « طومي » الشهيرة بمنفى الشاعر اوفيديوس ثمّ جاورْنا مدّةً السدَّ المنسوب الى القيصر طرايان حتى قطعناهُ فوصلنا الى تشرناقودا الواقعة عند موصل شمبتَيْن من نهر الدانوب البالغ عرضُ مسيلها ستّة عشر كيلومترًا مع ما يتوسّطها من المستنقعات

فلقطع هذه البحيرة قد شُيِّد المهندس الفرنساوي ساليني (Saligny) من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٥ جسرًا ترعيًا يُعَدّ من اعظم وأحكم الجسور المعروفة في العصور. وهذا المشروع يُقسم الى ثلثة اقسام : الاوّل هو عبارة عن جسر يرتفع فوق الشعبة الكبرى من نهر الدانوب على علوّ ٣٨ مترًا بحيث تستطيع اكبر السفن الشراعيّة المرور تحتهُ وهو يتألّف من قناطر متعدّدة تبلغ سعة الواحدة منها ١٩٠ مترًا ثم اربع ١٤٠ مترًا ثمّ ١٥ قنطرة في سعة ٦١ مترًا وهذه القناطر راكزة فوق اساس متين عمقهُ ٣١ مترًا. والقسم الثاني عبارة عن طريق مرتفعة (chaussée) فوق المستنقعات طولها ١٣ كيلومترًا مجهَّزة بجواجز في عدد ٣٤ حاجزًا لحبس المياه وإطلاقها. والقسم الاخير جسر ثانٍ على شعبة الدانوب الغربيّة يتركّب من ثلث قناطر سعة كلّ قنطرة ١٤٠ مترًا واحدى عشرة توعة عرض الواحدة ٥٠ مترًا

فبينما كنا نقطع هذه المعابر ونعاين المياه المحدقة بنا مع العوارض الحديديّة التي تمرّ في وسطها كنّا نشعر بحرّج متامنا فيستولي علينا شبه الاقشعرار والجزع على أنّنا كنّا نرى ايضاً فوق المياه الزرقاء مدفعيّات لحكومة رومانية كانوا زانوها بالرايات اكراماً لعيد الفصح الواقع في ذلك اليوم على الحساب الشرقي فيوقتنا نظارها

وبعد ان اجتزنا تلك المعابر بلغنا فتشتي ثمّ سرنا الى بخارست في وسط سهول وروابٍ قليلة الارتفاع كلها خضراء بما ينمو فيها من النبلات الوافرة التي تجعل رومانية احد اهراء اوربّة. وكنّا نميّز بين الخضرة قرىً يسكنها التسيغان (Tzi-ganes) وهم كنّور بلادنا. وهناك ايضاً جواسق لبعض ارباب الثروة

أحلّنا القطار في بخارست في ظهر النهار فلم يمهلنا الّا ساعةً لزيارة المدينة . هذه عاصمة رومانية تمتدّ في بطيحة واسعة كثيرة الخصب وعدد سكّانها لا يقلّ عن ٣٠٠.٠٠٠ نفس فيها الشوارع المتقنة والساحات الفسيحة والاسواق الرائجة والابنية الشاهقة تجارى اهلُها في هندامها الحواضر الاوربيّة لا سيما في نصف القرن الاخير . قيل انّ بانيها راعٍ اسمهُ بوقور فنُسبت اليهِ المدينة ودُعيت بقرش (Bucuresci) . وكان اوّل ورود ذكرها في آثار القرن الرابع عشر وقد فتحها سنان باشا سنة ١٥٩٥ ثم نزعها من ايدي الاتراك الامير الوطني ميخائيل ثمّ تناوبت في ملكها الدول حتى صارت اخيرًا سنة ١٦٨١ عاصمة الفلاخ والمداف

ثمَّ عدنا الى القطار فسرنا نحو الجنوب متوجهين الى جورجيثو (Giurgevo) وهي مدينة وسطى على ضفَّة الدانوب يرقى عهدها الى القرن الرابع عشر ابتناها احد الجنويين اسمهُ سان تسرزو (San Zorzo) او جيورجيو وزحف اليها الاتراك غير مرَّة وملكوها . وفي عهدة ادرنة سنة ١٨٢٩ أُعيدت الى الفلاخ . وجورجيثو اخر تخوم رومانية الجنوبيَّة وبازائها روستشوك البلغاريَّة يفصلهما نهر الدانوب الذي يخصب المدينتين اي خصب

فقطعنا النهر في ٢٠ دقيقة ووطئنا ارض البلغار . وغنيٌّ عن القول انَّ العسَّال لم يدَعونا نخالط اهل مدينتهم الَّا بعد التفتيش النظاميّ وفحص التذاكر الدقيق لا سيما الذين اتوا مثلي من الولايات التركيَّة . لكنَّ الديوان رأى جوازنا قانونيًّا وبعد ساعة دخلنا دير الرهبان الآلاميين الذين يخدمون في روستشوك الرعيَّة الكاثوليكيَّة ولهم كنيسة كاتدرائيَّة من الطرز القوطيّ المحكم البنـاء . ويديرون مدارس يعلَّم فيها الاخوة المارست النسوريُّون فرحَّب بنا الرهبان وسرُّوا باستقبالنا وكان اسقف المدينة غائباً وهو فرنسويّ الاصل السيّد دوليه (Mgr Doulcet) لكنَّهُ طاعن في السنّ منتهك القوى وقد شاع انَّ رومية عيَّنت لهُ خلفاً

روستشوك والبلغار يدعونها روسه (Russé) مدينة متوسّطة الكبر موقعها عند مصبّ نهر لوم (Lom) في الدانوب . واهلها ٣٤,٠٠٠ منهم ٩٠٠٠ مسلم عائشون في الوفاق والوئام مع البلغار ولهم ٢٨ جامعاً او مسجداً . وروستشوك قديمة العهد ومن المدن المحصَّنة كان الرومان يدعونها پرستا . وفي سنة ١٨١٠ فتحها الروس ثمَّ عاد الاتراك الى ملكها سنة ١٨٧٧ وحشدوا فيها جنودهم الَّا انَّ الروس رموها بقنابلهم من جورجيثو فبرحها الاتراك وصارت في حوزة الروس ثم ملكها البلغار

*

وفي صباح اليوم التالي اي الاثنين أقلَّنا القطار صباحاً متَّجهاً الى صوفيا فقطعنا نحو ثلثي بلغارية طولاً من الشمال الشرقيّ الى الجنوب الغربيّ وذلك مدَّة ثماني عشرة ساعة دون انقطاع كالسفر من بيروت الى حلب . ومع طول هذا السفر ومشاقهِ لم يأخذنا الملل لما كنَّا نشاهد من احوال البلاد واخلاق اهلها البلغار

والحقّ يقال انَّ بلغارية طيّبة التربة كثيرة الخصب . ولها الجبال الشاهقة والناظر

صورة عامة للقاهرة

البهجة التي ذكرتنا بجبال وسهول فرنسة وانكلترة. وكنا نظن ان الحرب الحالية اضرت بالزروع لانشغال الفلاحين في ساحة الوغى لكن البلغار من عنصر قوي ذوي همة عظيمة فقام الشيوخ والاولاد والنساء باعمال الفلاحة في غيبة الرجال. ولا غرو ان شعباً كهذا يصيب مستقبلاً حسناً

وكنا نشاهد بارتياح هؤلاء البلغاريين ونقرأ على سحنتهم آيات النشاط والاقدام فلا عجب ان كانوا لا يهابون الكدّ وتضحية النفس في سبيل الوطن . وكان اكثرهم لابسين ملابس العيد البهية الالوان المختلفة الازياء وكانت نساؤهم وبناتهم حاليات آذانهن بطاق من الزهور او غصن من الاكاسيا المزهرة

واخذ قطارنا عند خروجه من روستشوك يصعد شيئاً فشيئاً الى المشارف المطلة على ضفة نهر الدانوب اليمنى فكنا نمتع عيوننا بمنظر سيد الانهار وساعديه نهري اوم وجنترا اللذين يقطعهما القطار غير مرة. وبعد ساعتين بلغنا نجداً متسعاً علوه ٧٠٠ متر فوق سطح البحر وكنا نشاهد من ثم كشبه بحر اخضر من الاشجار والغابات النبيلة بينها الوهاد المحجوبة بالخضرة . وكانت جبال البلقان تلوح لنا عند الافق وشمس اصيل النهار تخضبها بالوانها الوردية. وما لبثنا ان اقتربنا من تلك الجبال عند مغيب الشمس والثلوج تكسو قممها بثوبها الناصع. فقطعنا كوجا بلقان وجاورنا بلقا حيث جرت سنة ١٨٧٧ تلك الوقائع التي اكسبت عثمان باشا فخراً مؤبداً فانه مدة اربعة اشهر ونصف قاوم كل قوات المسكوب ولولا شهامة جنود رومانية ونجابة سكوبليف لما ألجي عثمان باشا الى التسليم . وكنا نرى في طريقنا الآثار المنبئة بتلك الحوادث فهنا مدافن للقتلى وهناك كنائس ومشاهد ومزارات لذكر الابطال وفي محل آخر تماثيل ورموز تدل كلها على ما حدث من الملاحم والمآثر المفجعة

وكان دخولنا في صوفيا بعد منتصف الليل بنصف الساعة وكان البرد شديداً والجبال التي حول المدينة معممة بالثلوج الغراء. فبعد ساعات قليلة قضيناها في احد النزول بحثنا في السحر عن كنيسة الآباء الكبوشيين فاذا هي قريبة فقدمنا الذبيحة الالهية ثم خرجنا لنستأنف طلب الرخصة من الوزارة الحربية بدخول ادرنة. ولحسن التوفيق وجدنا في صوفية قنصل ادرنة الفرنساوي وهو المسيو كوينه (M^r Cuinet) الذي كان ابرق مراراً الى سفارة دولته من سلامة المستعمرة الاوربية في ادرنة فلجئنا

به وقدَّمنا له فرائض الاكرام شاكرين لجنابه حسن رعايته لاقاربنا . وكذلك رحَّب بنا معتمد الدولة الفرنسويَّة في صوفيا ولمَّا علم باني تجشَّمت سفرًا طويلًا واني لم أحظَ بالجواب المطلوب على يد السفارة في الاستانة جعل في وقته يخاطب بالتليفون الوزارة الحربيَّة ملحًّا عليها بان تمنحني الرخصة بالدخول الى ادرنة. فوعدتهُ خيرًا وما مرَّ عليَّ بضع ساعات حتى فزتُ بالمرغوب عند المساء.

وقد صرفتُ قسمًا كبيرًا من النهار في تفقُّد حاضرة البلغار وآثارها ودخلتُ قبل كلّ الى كنيستها الكاتدرائيَّة التي شيَّدوها على اسم القديس اسكندر تذكارًا لاوَّل تحرير البلغار على يد المسكوب. وهي حقيقة بناء فخيم لم يدخروا فيه شيئًا من محاسن البناء والهندسة والنقش والفسيفساء. وسيتمّ تدشينها قريبًا بعد نهاية الحرب. وكذلك زرنا الباسيليقة القديمة « سوينا صوفيا » المبنيَّة في القرون الوسطى . وهي من الطرز البوزنطيّ ذات ثلث اسواق وقد اضرَّ بها احد الزلازل التي دهمتها. ودخلنا ايضًا مجلس النوَّاب المعروف بالسوبرانيه ومكتب البريد . وفي المدينة غير ذلك من الابنية التي مررنا بقربها كالقصر الملكيّ والكنيس الاسرائيليّ والحمَّامات العموميَّة. والحقّ يقال انَّ صوفيا تجاري بمحاسنها ونظافة شوارعها وازقتها اكبر عواصم اوربَّة

وصوفيا مدينة رومانيَّة يرقى عهدها الى القرن الاوَّل للمسيح وقد جعلها القيصر طرباتوس رأس معاملة ودعاها اولپيا سرديقا (Ulpia serdica) ثمَّ اتَّخذها الامبراطور اورليان سنة ٢٧١ مركز ولاية جديدة (Dacia mediterranea) وقيل انَّ قسطنطين الكبير كان يرتاح الى سكناها فيدعوها عاصمتهُ رومية . وقد احتلَّها البلغار سنة ٨٠٩ فجعلوها تخت مملكتهم . والبلغار كما لا يخفى من العنصر الاوغروفنيّ المقارب للعنصر التركيّ واما لغتهم فقط فهي صقليَّة اخذوها من الوطنيين الذين استولوا على بلادهم . واسمها صوفيا مشتقٌّ من اسم كنيستها الكاتدرائيَّة . وقد فتحها بنو عثمان سنة ١٣٨٢ فبقيت في حوزتهم ٥٠٠ سنة يتولَّاها امراء الروملي المعروفون بيكلربك. وملكها المسكوب سنة ١٨٧٨ فاتَّخذوها كحاضرة امارة بلغارية وكان اميرها الاوَّل البرنس اسكندر دي باتنبرغ في ٢٩ نيسان ١٨٧٩ ولمَّا قلبتهُ الثورة سنة ١٨٨٦ خلفهُ الملك الحالي فرديناند دي سكس كوبرغ غوتا في ٧ تمُّوز ١٨٨٧

ثم نودي به قيصراً في السنة ١٩٠٨ . وقد شيّدوا بقرب الكنيسة الكاتدرائيّة تذكاراً جليلاً لتحرير البلغار من معدن البرنز يمثل اسكندر الثاني قيصر روسيّة وبجواره اربعة من قادة جيوشه . وصوفيا راقية كلّ يوم في مدارج التقدّم وعدد اهلها حالاً ٨٠,٠٠٠ ولم يكن سنة ١٨٨٠ الاّ ٢٠,٠٠٠ . امّا بلغارية فكان عدد سكّانها قبل الحرب الاخيرة ٤,١٠٠,٠٠٠ نفس منهم ٣,٢٠٠,٠٠٠ من العنصر البلغاري ثمّ ٥٠٠,٠٠٠ من التراك و ٩٥,٠٠٠ تسيغان و ٨٤,٠٠٠ روماني و ٦٩,٠٠٠ يوناني و ٣٦,٠٠٠ يهودي ومثلهم الارمن مع غيرهم . ومن المعلوم انّ الحرب وسّعت كثيراً حدود البلغار

ورأينا في صوفيا عدداً عديداً من أسرى التراك لاسيما الضبّاط وهم في بزّتهم العسكريّة ما عدا السيف يتجوّلون في المدينة بتمام الحرّيّة وقد فرّقتهم الحكومة البلغاريّة في انزال شتى وهي تصرف عليهم من مالها . وعلى ابواب هذه الانزال رجلان من الشرط يرقبان الاسرى وعند المساء يناديهم الشرط باسمائهم

قلنا انّ لغة البلغار هي صقليّة اي اخت الروسيّة تكنّ لغات اخرى جارية ايضاً على ألسنة البلغار واخصّها التركيّة فانّها شائعة في بلغارية يتكلّم بها الالوف من المسلمين الذين لم يهاجروا منها بعد تحرير بلغارية سنة ١٨٧٧—١٨٧٨ ومنهم من لا يعرف غيرها كعشائر البوماك (Pomaks) الذين يمتازون بملابسهم فعلى رؤوس رجالهم العمائم المعروفة بالصاريق وتلبس نساؤهم الياشماق وكلّهم حائزون على حرّيّة دينهم لا يعارضهم احد فيه . والمسلمون في بعض المدن اكثر من سواهم بعد البلغار كفيليبه وروستشوك حيث التركية اشيع من اليونانيّة . وقد اختبرنا الامر حيث اقادتنا في سفرنا اللغة التركيّة اكثر من اليونانيّة

وكان يودّنا ان نقضي في صوفيا يومين او ثلاثة لولا رغبتنا في قضاء واجباتنا الاهليّة في ادرنة . ففي صباح يوم الاربعاء ٣٠ نيسان طارت بنا اجنحة البخار الى مدينة صارت في الاشهر الاخيرة مطمح الآمال . فما كدت اصدّق اني في ذاك النهار أعاين وطني واعزّ اقربائي

بلغنا عند الظهيرة مدينة فيليبه التي يدعوها البلغار بلوفديف (Plovdiv) الواقعة

على ضفّة نهر ماريتزا والقطار يكاد يجاري هذا النهر طول النهار . وفيليبه كصيغتها صوفيا في ترقٍ متواصل . كان القدماء يسمّونها اوملپياس (Eumolpias) ثمّ تسمّت بمدينة فيليب اكراماً لفيلبُّوس الثاني ملك مقدونية . واهلها اليوم ٤٨,٠٠٠ عدًّا بينهم ٨,٠٠٠ مسلم يقضون فرائض دينهم في ٢٦ جامعاً او مسجداً . وهي مدينة رائجة الاسواق كثيرة المرافق . على انَّ ضيق الوقت لم يسمح لي بزيارتها

وكنَّا نواجه في طريقنا قطارات حديديّة للضرب كانت موسوقة بادوات حربيّة وقذائف اتّخذوها لمحاصرة ادرنة . وقد لحظت الفرق العظيم بين العنصر البلغاري والعنصر الصربيّ . فانَّ الصرب بيض الالوان شقر الشعور والشوارب زرق العيون مستطيلو الوجوه امَّا البلغار فسحنتهم خشنة وبنيتهم ضخمة . وكنَّا نعاين الفريقين اذا التقيا ينظر بعضهم الى بعض شزرًا كأنهم اعداء وهم في الامس كانوا متحالفين لمحاربة الاتراك

وفي مساء النهار بلغ بنا مسير القطار الى محطّة مصطفى پاشا حيث كان جيش البلغار معسكرًا في مدّة حصار ادرنة ثم قطعنا بعد حين قاضي كوي ثمّ مراش وكنتُ اشعر بتأثّر اعظم على قدر اقترابنا من ميدان الحرب حيث جرت الدماء البشريّة سيولًا ودُفن الوف وربوات من الابطال

وبعد قليل بلغنا الجسر الحديديّ الذي قطعهُ شكري پاشا يوم تسليمهِ لادرنة فأخذ القطار يسير سيرًا ليّنًا فوق نهر اردا (Arda) بينما كنَّا نعاين مياههُ الجارية تحتنا ولما توسّطنا الجسر رأينا نحو ثلث من جانبهِ قد سقط في النهر وكان البلغار اصلحوهُ واقاموا لهُ ركائز من خشب فقطع قطارنا على رسلهِ ذلك المعبر المخطر ثم صفرت اداتهُ واخذت تنهب الارض نهباً وللحال صرخ الركّاب متهلّلين وكان كثير منهم من البلغار فسمع جلبتهم اخوتهم العسكرون هناك فهتفوا مثلهم كأنهم يهنئونا بالسلامة

والمسافة من هناك قريبة الى ادرنه فوصلنا بعد بضع دقائق الى قراغاج وهي محطّة ادرنه فنزلت وانا في غاية التأثّر ولاعج الشوق فركبت عربة اقلّتني من المحطّة الى البلد والمسافة بينهما ٢٠ دقيقة واذ طرقتُ باب دارنا الوالدية دقّت الساعة العاشرة

من الليـــل وهي الليلة السابقة للشهر المرعي وفي اولهِ عيد صعود الربّ الى السماء. (لها بقيّة)

اصل الحياة

خطاب القاهُ الاديب منصور افندي السوداء من جمعيّة الشبيبة الكاثوليكيّة

ليس كلّ شيْ في الطبيعة مادّةً هيولية . قال العلّامة دي كاترفاج (M^r de Quatrefages) : لا يستطيع الانسان مهما تفاقم جهلهُ الّا يرى في الطبيعة صنفين من الموجودات يختلفان كلّ الاختلاف اعني الجمادات والاجسام الالية

لا ننكر انهُ يوجد في كليهما خواصّ مشتركة تدخل فيها جميعاً فانّ في دقائق الجسم الحيّ كما في تركيب الاجسام الصلبة اركاناً لا تختلف كالكربون والاوكسيجين والهدروجين والازوت والكبريت والفسفور فتعمل فيها العوامل الطبيعيّة والكيمويّة وتدخلها على سواء في الجوامد وفي الاجسام الحيّة

لكنّ هناك ما عدا هذه الاركان المشتركة فروقاً عظيمة تفصل بينهما فصلاً باتّاً لانّ لخلايا الحيّ وجداناً لا يدركهُ التحليل الكيمويّ وخواصّ لا تملكها المادّة قطعيًّا

فمن ذلك انّ لاجسام الاحياء بنياناً يتكيّف بكيفيّات لا يفي بها احصاء على خلاف الجوامد المعدنيّة فانّ تركيبها يلزم حالةً واحدة

ومنها انّ الحيّ ينمو ويبادل في كلّ ساعةٍ دقائقهُ مع العالم الخارجيّ فيدخل عليهِ التركيب والتحليل بلا انقطاع . واذا بطل التركيب ودام التحليل أُصيب الحيّ بضربة لازبة ندعوها الموت . امّا الجسم الجامد فيبقى على تركيبهِ اللهمّ الّا اذا تسلّط عليهِ احد العوامل الخارجة

وكذلك الحيّ نراهُ يتقلّب في اطوار مختلفة فيلوح في عالم الوجود ثمّ ينمو حتى اذا بلغ تمامهُ آل الى الضعف والهرم . امّا المعادن فلا تنمو واذا نمت كان نموّها بانضمام اقسام خارجة اليها ليس بتحويل الاجسام الغريبة الى ذاتها